حظر أجير
قصة قصيرة
تأليف
حسين السنبختي

حَظْر أَجِير

قصة قصيرة

تأليف

حسين السنبختي

كأنّه تلميذٌ بليدٌ قد تسمَّر فاغِرًا فاه أمام سَبُّورةٍ شرحٍ مُمْتلئةٍ إلى حَدِّ التكدُّس والالتباك بدروسٍ لم يُحِطْ بها عِلمًا، باستثناء أنّه لَم يَتَلَقَّ في حياته درسًا ولَم يرَ سَبُّورةً غير مَرَّةٍ وحيدةٍ كان يعمل جاهِدًا على هَدِّها وتسويتها بأرض الفصل؛ من أجل أنْ يتَلَقَّى على ذلك أجرًا.

هو حقًا لا يفهم ما يحدث، ولا يَستوعِب ما يجري، وأحيانًا لا يجد نفسه تطمئن أو تُصدِّق ما يُقال ويستَشْري. وبالنسبة إليه؛ فلا شيءَ مُؤسِفٌ أو مُخِيفٌ قد يقع له أو لعياله إذا ما طالهم هذا الوحش المُميت الذي يُرعِب الناس ويختبئون بسببه أكثر مما هم واقعون فيه أصلًا. إنّ ضررًا أعظم وأسرع ممّا يتكلمون عنه قد عايشه وأصابه هو وصغاره بسبب تَفشِّي الخوف في النّاس أجمعين، مُزيدين بذلك طين مَعيشتهم المُوحِلة في الفقر والمرض بَلَّلا وتَمَيُّعا والتزاقًا.

ليس لديه تلفازٌ يتابع من خلاله آخر الأخبار المُنتشِرة التي لا يعرفها إلّا حينما يَخْرُج في الصباح ليجلس بجانب زملائه على الرصيف المُعتاد ويبدؤون في حديثٍ طويلٍ للغاية عن هذا الأمر المُستجَد المُريع، ولا يَقْطَع حديثَهم -كما كان يحدث قبل ذلك- قِيامُ أحدٍ منهم لأنّه طُلب لعملٍ، بل يَقْطَعه بعد استحكام الملل واليأس والجُوع بِدءُ العملِ بساعات حَظْر التَجْوَال المَفروض جَبْرًا على العباد بسبب هذا الوباء الذي عَمَّ البلاد؛ فيقوم مُضطرًّا ليعود إلى أُسْرته خاوي اليدين، وحتى من دون تلك الوجبة التي كان يُوَزِّعها عليهم بعض الأخيار الذين توقفوا عن فعل ذلك منذ يومَين بعد أنْ جَثَمَ الرعبُ والخوفُ على صدورهم وازدادوا تباعُدًا وحذرًا واختباءً.

في تلك الليلة لم يأته النوم بسبب جُوعه والتفكير في أولاده وهو ينظر إليهم حامدًا الله أنّهم قد ناموا أخيرًا رغم تألُّمهم من الجُوع. يتسلل من جانب زوجته. يَجْلِب عِدَّته المُكَوَّنة من عَتَلَةٍ وفأسٍ ومِطرقةٍ وقُفَّةٍ، يفتح القُفَّة ويُخْرِج منها كيسًا بلاستيكيًّا صغيرًا أسمر اللون، تستيقظ زوجته على إثر صوت الكيس؛ فتراقبه وهو يَستخرِج منه ما ظنّته طعامًا كان يُخبِّئه لنفسه، لكنّها تَجِدُه يرتدي قُفّازَين وكِمامةً طِبّيّةً ثم يُخْرِج أخيرًا من الكيس نظّارةً واقيةً ويُمسِكها في يده ويَهُمّ بحمل عِدَّته مُتهيِّئًا للخروج. تناديه ثُمَّ تقوم إليه مُستغرِبةً ومُستنكِرةً تدبُّره للقُفّازَين والكِمامة وتلك النظّارة وتسأله مُستاءةً «تخاف على نفسك!، خَفْ عليَّ وعلى أولئك الصغار، كان عليك أنْ تتدبّر بدلًا من تلك الأشياء التافهة خُبزًا لأولادك الجائعين الذين لَم يتناولوا وجبةً تسد رمقهم منذ ليلتين.». يقف مُطَأْطِئَ الرأس دون ردٍّ، فتسأله مُتهكِّمةً ومُتحسِّرةً حين تراه يتجاهلها ويحمل عِدَّته ويَهُمّ بالخروج عن سبب خروجه في ذلك الوقت المُتأخِّر! وكيف يبحث عن عملٍ في هذا الليل وهو الذي لَم يَجِدْ بالنّهار عملًا منذ أسابيعٍ ثلاثٍ! لا يَرُدّ عليها ويغادر؛ فتواصل تَهكُّمها ساخرةً وحالمةً وتطلب منه: «أحضر الجبنة المُثلَّثات والمُرَبَّعات والعيش المُرَبَّع لنا اليوم، لأنّنا سئمنا اللحم والدجاج.».

ذهب إلى المكان الذي يجلس عنده كُلّ يومٍ منذ خمسة عشر عامًا بعِدَّته وأدواته مُنتظِرًا مع من ينتظرون من زملائه أنْ يأتي أحدهم ليستأجره لسويعاتٍ أو ليومٍ أو لبعض يومٍ من أجل هدم جدارٍ أو رفع حُطامٍ أو نقل طوبٍ ورملٍ وإسمنتٍ أو حتى حَمل أثاثٍ، لكنّه تلك المَرّة لم يَقْصِد الرصيف الذي كان يقصده ويلزمه طيلة سنواته الماضية، كان يَقْصِد هذا الشيء الغريب الذي أحضروه لهذا المكان منذ سنواتٍ خَمسٍ وثبتوه بجوار المَركز التجاريّ الأشهر في البلدة،

وحيث كان يراقب دومًا باندهاشٍ وتَمَنٍّ الناسَ وهم يَستخرِجون منه المال بالضغط على بعض الأزرار وإدخال قطعةٍ بلاستيكيةٍ ملونةً بحجم كَفّ يد طفلٍ صغيرٍ، تلك الماكينة العجيبة التي كان يَحلُم لو يستطيع امتلاك واحدةٍ منها في غرفته المتهالكة الضيقة التي بلا حَمّامٍ، والتي يسكنها بإيجارٍ قديمٍ ورِثها عن والده العَتّال كما ورِث عنه مِهنته.

وصل إلى الماكينة من خلال شارعٍ جانبيٍّ مُرتديًا الكِمامة والقُفّازات ونظارة عينٍ واقيةٍ، ومُعتمِرًا كيسًا بلاستيكيًّا أسودَ على رأسه، يُغَطّي طاقيّته وشعره بالكامل وجزءًا من جبهته بينما يضع جلبابه جَمَليّ اللون في بنطاله وكأنّه قميصٌ ودّ لو اشتراه يومًا ما، وينتعل زوجًا من أحذيةٍ بلاستيكيّةٍ طويلةٍ ذات لونٍ أصفر، يقتربان بسبب طولهما من ركبتيه، ولولا أنّه يَحمل قُفَّته وعَتاده؛ لَظَنّه من يراه أنّه أحدُ أفراد مكافحة الوباء المُتفشّي، لكنْ من سيراه في تلك الساعة المُتأخِّرة من حَظْر التَجْوَال، في ليلةٍ باردةٍ وعاصفةٍ من ليالي مُحاولات احتواء الفيروس الغامض العنيد «كوفيد 19».

كانت للرجل يدان قويّتان جِدًّا، وكانتا قد تعطّلتا لوقتٍ طويلٍ لعدم وجود عملٍ، واشتاق لأن يضرب بهما، لكن جُوعه وجُوع أولاده كان الحافز الأوّل الذي يدفعه باستماتةٍ لأن يُنْجِز ما أتى من أجله بسرعةٍ وقوّةٍ. وما هي إلّا ضرباتٌ ثلاث بعتلته وبمطرقته الحديديَّتين، ثُمَّ سَحبةٌ واحدةٌ بفأسه المُنغرِز سِنّ رأسه بين الماكينة والجدار؛ حتى انخلعت ماكينة الصراف الآليّ وانفصلت عن الجدار واقعةً أمام قدميه، وقد تناثرت الأوراق النقديّة بكثرةٍ على الأرض، يتطاير بعضها ويقبض هو على بقيّتها الكثيرة ويَملأ بها قُفَّته، ثُمَّ يَفِرُّ سريعًا.

من المُؤكَّد أن الجلبة التي أحدثها في ذاك المكان البعيد جرَّاء استخدامه لقوته وعِدَّته في اقتلاع الماكينة من مكانها -وإن لم يُعِرْها أحدٌ اهتمامًا- لم تكن بقوةِ وطولِ واستمرارِ تلك الجلبة التي تُحدِثها زوجته وأولاده في غُرفتهم الضَيّقة في هذه اللحظات؛ حيث يتعالى صوتُها الغليظ وهي تبكي وتنتحب غير مُصدِّقةٍ روعة هذا الطعم وهي تتذوّق ما كانت تحلم بأكله يومًا ما؛ هذه الجبنة المُربَّعة، بينما يصرخ أولاده فَرَحًا وهم يأكلونها بورقتها الفِضّيّة الرقيقة في نهمٍ واستمتاعٍ، ثُمَّ يملؤون أفواهَهم في تسابقٍ واشتهاءٍ بهذا الخبز المُربَّع الطريّ؛ فتتكتم أصواتهم لثوانٍ قليلةٍ ثُمَّ ما تنفك تنطلق من جديدٍ بضجيجٍ وصياحٍ وسباقٍ والتهامٍ أكبر من ذي قَبْلٍ.